ثم أنهض مستأنفة للسعي، وإذا أختي تسايرني، وإذا الظلال التي كنت أراها أثناء العلة تطيف بها وتطيف بي، وإذا ظلال أخرى تملأ الفضاء من حولي لا أدري أنجمت من الأرض أم هبطت من السماء، ولكني أراها تكثر وتختلط وأسمعها من حولي تصخب وتلغط حتى أخاف على نفسي الجنون.

أنا على ذلك كله ماضية تتقاذفني القرى وتتدافعني الضياع، أستضيف هؤلاء حينًا وأسأل هؤلاء حينًا آخر، أعمل في الحقول مرة وأعمل في البيوت مرة أخرى، وهذان اللونان من الشعور يختلفان على قلبي ويتعاقبان على نفسي لا يمهلانني في اليقظة ولا يعفيانني في النوم، أنا مضطربة دائمًا بين أهلي الذين فررت منهم فرارًا، وبين أختي وصاحباتها اللاتي يستجبن لي كلما ذكرتهن كأنما يسمعن دعاء فيسرعن إلى الداعي. وأنا ماضية أمامي أتقدم نحو الشرق من يوم إلى يوم، ولي من غير شكٍّ غايةٌ أعرفها وأسعى إليها، ولكني لا أكاد أتمثلها ولا أستحضرها، وإنما أنا أطلبها غير شاعرة بها كأنما تدفعني إليها الغريزة دفعًا.

أنا ماضية نحو الشرق، لا أنحرف عن غايتي إلى يمين أو إلى شمال إلا لأقضي ليلة في هذه القرية أو لأستريح ساعات أو لأستريح يومًا في هذه القرية أو تلك، ولكني على جناح سفر دائمًا، متجهة نحو الشرق دائمًا، ممعنة في الشعور بالأمن كلما ازددت من الغاية دنوًّا ومن المدينة قربًا، فالمدينة إذن هي غايتي من كل هذا السعي، فيها ألتمس الأمن، وبين أهلها ألتمس الحياة الوادعة! وبيت المأمور هو غايتي من المدينة، إليه ألجأ وإلى من فيه أفزع وبمن فيه أستعين، في ظله أريد أن أعيش، وعند أهله أريد أن أودع قلبي، وعند خديجة من أهله خاصة أريد أن ألتمس الراحة لهذه النفس المعذبة، والشفاء لهذا القلب المريض، لن آمن حتى أبلغ هذه الدار، ولن أبلَّ من علتي حتى أرى هذه الوجوه وأسمع هذه الأصوات، وأستأنف حياتي مع الخدم والسادة كعهدها منذ أشهر قبل أن تأمرنا أمنا بذلك الرحيل المشئوم. إذا بلغت هذه الدار فستقصر يد خالي دون أن تبلغني، وإذا اطمأن بي المقام في هذه الدار فلن يجد الروع إلى نفسي سبيلًا. ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبي إن سألوني أين كنت؟ كيف أجيبهم؟ … وبم أجيبهم؟ أأقص عليهم حديثي كله أم أطويه عنهم طيًّا؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبي إن رأوني فأنكروني ثم أبوا أن يفتحوا لي بابهم وأن يلقوني بما أحب أن يلقوني به من الرضا والعطف والابتسام؟ ما خطب خديجة وما خطبي إن رأتني فأعرضت عني لأنها وجدت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم منها مقامي ويلهيها كما كنت ألهيها، ويشاركها في الجد